د. أحمد عبدالرازق عبدالعزيز
باحث أكاديمي

أضواء على أعمال صلاح الدين الأيوبي

لقد ساعدت الظروف والأحداث السياسية -التي أحاطت بالمنطقة العربية في العصور الوسطى- صلاح الدين الأيوبي على حمل لواء الدفاع عن الأمة العربية ضد الزحف الصليبي والسيطرة على مفاتيح الدول العربية.

وبموت نورالدين محمود زنكي في شوال ٥٦٩هـ/ مايو ١١٧٣م، ترك إرثه لابنه الصغير. هذا الإرث تصارع عليه البيت الزنكي مما أدى لحالة من التشرذم، وعدم الوحدة، وصاحب ذلك طمع عموري ملك مملكة بيت المقدس في مدينة دمشق، حيث أجبر نائبها على دفع مبلغ من المال كنوع من فرض السيطرة؛ كل تلك الأحداث السريعة أجبرت صلاح الدين على التحرك سريعا من أجل إعادة وحدة الصف العربي وحمل لواء الدفاع عن الأمة العربية ضد خطر الفرنج؛ فكانت أول أعماله تسلم قلعة دمشق من قائدها في ربيع الأول ٥٧٠هـ/ سبتمبر ١١٧٤م[١].

ونظرا لموقع مصر نبض العالم العربي، قرر صلاح الدين عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م اتخاذها مقرا لعملياته العسكرية ضد الفرنج، وذلك عن طريق إجهاض مخطط الفرنج لأخذ مصر بعد أن سيطر على مقاليد الحكم في أواخر عهد الدولة الفاطمية والقضاء على شاور وزير الدولة الخائن، حيث استطاع صلاح الدين أن يتقلد الوزارة في وجود خليفة فاطمي ضعيف هو العاضد الذي كان يعلم بسقوط دولته دون معرفة الوقت، حيث استطاع صلاح الدين إسقاط حكم الفاطميين في أول جمعة من المحرم عام ٥٦٧هـ/ سبتمبر١١٧١م، معلنا ولاءه للخلافة العباسية، صاحبة المذهب السني في بغداد وقيام الدولة الأيوبية[٢].

وبعد أن نظم دولته داخليا كان يعتقد أنه يستطيع بعساكره وجيشه أن يقضي على الفرنج؛ فكانت مصر أولى انطلاقاته العسكرية ضد الفرنج فاتجه إلى فلسطين، وحاصر بلدوين الرابع في عسقلان، واقتربت قواته من بيت المقدس، وكاد أن ينتصر على حاميتها لولا انشغال جنوده بالغنائم، وفقد صلاح الدين السيطرة على قواته فهاجمة بلدوين بشكل مفاجئ عند تل الصافية جنوب شرق الرملة، وكبد جيش صلاح الدين خسائر فادحة، وشتت قواده، وعاد إلى مصر عبر الصحراء بمشقة كبيرة، وكانت تلك الخسائر سببا مباشرا في تنبهه إلى أن بعد مصر عن مملكة بيت المقدس سبب له مشقة في انطلاقاته العسكرية؛ لذا اتخذ من دمشق قاعدة جديدة لنضاله[٣].

وعلى الجانب الآخر أيقن قادة الفرنج الأهمية الاقتصادية للبحر الأحمر، والجنوب العربي والحجاز مما أدى إلى قيام رينالدو دي شاتيون المعروف في المصادر الإسلامية باسم أرناط حاكم

الصليبية وما جرى للمسلمين بسبب تفشي الأنانية في نفوس قادة الإمارات الإسلامية في ذلك الوقت، وتغليبهم للمصلحة الشخصية على حساب الدين والأمة، عمد صلاح الدين إلى إصلاح ذلك ببث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة من جديد، فكان يقول لجنده إذا قاتل أو أغار على أعدائه: «لا تقاتلوا عني وقاتلوا في سبيل الله»[5].

وحرص صلاح الدين على توثيق صلة الجند بالله تعالى، فكان يحثهم على كثرة ذكره، وكان يحضر العلماء والفقهاء، والمفسرين ليعلموا الجيش كتاب ربهم ويفقهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم. وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا في الليل وأن يذكروا الله ذكرا كثيرا، وكان يتفقد خيام الجند فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو.

كما استعان صلاح الدين بالعلماء، وقربهم منه، وأنزلهم منزلتهم، وكان يأخذ بمشورتهم، بل لقد استعان ببعضهم في إدارة بعض البلاد، وكان أشهر العلماء قربا من صلاح الدين القاضي الفاضل الذي كان يرافقه في حله وترحاله، حتى قال صلاح الدين عن سبب فتحه للبلاد بعد فضل الله -عزوجل-: «ما فتحت البلاد بالعسكر وإنما فتحتها بكلام القاضل»[6].

ولهذا لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء الذين كانوا يهيئون الجبهة الداخلية، ويدعون له في الجمع، وكانوا عاملا مهما في إعداد الأمة جهاديا، وساهموا مساهمة عظيمة في رفع الروح المعنوية للمسلمين قبل حطين وبعدها.

وكان صلاح الدين بالرغم مما أعده، والأسباب التي اتبعها، وأخذ بها، كان دائم الدعاء والمناجاة، قال القاضي الفاضل عن حال صلاح الدين مع الله ومناجاته له: كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد فيقول: إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية من نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاص إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك وأنت حسبي ونعم الوكيل، ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على لحيته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول[7].

وبقدر اهتمام صلاح الدين بالجبهة الداخلية كان اهتمامه بالعدو ومعرفة أحواله ودراستها ومعرفة كيفية الاستفادة منها، فقد بث جواسيسه في إمارات الصليبيين وصل إليه أن الخلافات بينهم كثيرة والثقة بينهم منعدمة وكل أمير منهم يستريب من الآخر ويخشى غدره، وكان من نتاج تلك المعرفة أن جند زوجة صاحب برزية أخت زوجة أمير أنطاكيا بوهمند وقيل: جند زوجة بوهمند نفسها، وكانت تدعى سيبيلا، فقد كانت تخبره بتحركات الصليبيين وخططهم أولا بأول، يقول ابن الأثير: «إن أميرة أنطاكيا كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التي تؤثر»[8].

كما أفاد علم صلاح الدين بحالة الخلاف وعدم الثقة بين أمراء الحرب الصليبيين أن حيد الأمير ريموند أمير طرابلس وقيل: اتفق معه على الانسحاب من أرض المعركة، وبالفعل عندما بدأت المعركة أخذ بالانسحاب وفتح له المسلمون الصفوف حتى هرب بجنده، وهذا إن دل فإنما يدل على حنكة صلاح الدين العسكرية ومهارته القيادية رحمه الله تعالى.

ما بعد المعركة

بعد المعركة قويت شوكة المسلمين وازدادت رهبتهم التي ألقاها الله في نفوس الصليبيين، فقد أسر الكبراء والأمراء، وتساقطت حصونهم وقلاعهم حصنا تلو حصن وقلعة تلو قلعة، فاستولى على قلعة طبرية، وأقام بها حتى رتب أمورها، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجدي، وبعدها منَّ الله عليه بفتح عكا دون قتال بعدما خرج إليه أهلها يتضرعون يطلبون منه الأمان، كما فتح الناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت وغيرها من بلاد الساحل إلى أن توجت هذه الفتوحات بفتح بيت المقدس في اليوم السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ من الهجرة الموافق الثاني عشر من أكتوبر عام ١١٨٧ ميلادية، وبذلك تكون معركة حطين مفتاح بيت المقدس بفضل الله تعالى.

وتبقى هذه المعركة يوما من أيام الله تعالى، والتي جعلها الله فرقانا بين الحق والباطل كبدر واليرموك وعين جالوت.

وتبقى كذلك مذكرة للمسلمين بأسباب فوزهم وعزهم وأن الأخذ بالأسباب دين كما أن الاعتماد على الله دين فكلاهما مأمور به.

الهوامش

١- حضارة العرب جوستاف لوبون ص٣٢٨.
٢- صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية ص٥٠٤.
٣- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١٢٩.
٤- جهود صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية ص٥٠٧.
٥- صلاح الدين الفارس المجاهد والملك العادل ص٢٦٣.
٦- شذرات الذهب ج٤، ص٢٢٧.
٧- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٠.
٨- الكامل لابن الأثير ج١٠ ص٥٦.